آثار عرب الشام

الغساسنة

بينما كان علماء الالمان في هذا العام يبحثون في الجامع الاموي في دمشق الشام عن آثاره الخطية القديمة وينشرون ما انطوى فيه من الكتب والرسائل العبرانية والسامريّة واللاتينية والارمنيّة واليونانية والسريانية كان المسيو برهرت احد المستشرقين الالمانيين ايضاً يجول بين يدي سكة الحجاز الحديدية في غربي الاردن حيث تكثر الخرابات والآثار القديمة . وقد سهّل له ذلك المهندسون الالمان في السكة الحديدية الحجازية

ولما عاد المسيو برهرت الى وطنه نشر شيئاً من نتيجة رحلته . وأهمّ ما جاء فيها تنبهه الى خرابات مجهولة قائمة وراء الاردن على طريق الحج تدعى « المشتى » وقد سميت كذلك لان البدو هناك يصرفون فصل الشتاء فيها

وخرابة « المشتى » هذه عبارة عن قلعة مربعة تقريباً طول جدارها الجنوبي ٦٠ متراً وجدرانها الثلاثة الاخرى اقصر بثلاثة امتار . وعلى هذه الجدران الثلاثة برجان ضخمان وخمسة ابراج اخرى اصغر منها . والمدخل اليها كائن في صدرها الجنوبي . وهذا الصدر مزين بنقوش في غاية الجمال وإحكام الصنعة حتى ان السائح ليدهش من اتقانها

لكن يظهر من حالة البناء انه لم يتمّ قط اي ان الذين شرعوا في بنائه عدلوا عنه بعد الشروع فيه . قال المسيو برهرت : ولكن من بنى ذلك البناء الفخيم في تلك البرية الجرداء التي لا اثر للقرى والمدن من حولها ؟ يظهر ان السائح يرجّح ان ذلك الاثر من آثار الغساسنة عرب الشام . فان المسيو دي فوكوه يقول ان آثار شربة البيداء في الصفا في شرقي دمشق هي من آثار الغساسنة . والمشتى شبيهة بشربة البيداء من عدة وجوه . وفضلاً عن ذلك ففي قرب المشتى قلعة اخرى تُدعى « القسطل » مشهور عنها انها من آثار الغساسنة . (انظر كلام ابي الفداء بعدُ) وفي ذلك دليل على صحة رأي المسيو برهرت

ومعلوم ان الغساسنة عرب اصلهم من اليمن من بني الازد وقد هاجروا بلاد العرب عقب حروب واضطرابات مختلفة (١) « و نزلوا على ماء بالشام يقال له « غسان » فنسبوا اليه . وكان قبلهم بالشام عرب يُقال لهم الضجاعمة من سليح فاخرجت غسان سليحاً عن ديارهم

(١) ابو الفداء يقول عقب سيل العرم

وقتلوا ملوكهم وصاروا موضعهم . واول من ملك منهم جفنة بن عمرو . وكان ابتداء ملكهم بالشام قبل الاسلام بما يزيد على اربعمائة سنة وقيل اكثر » (ابو الفداء) ولما ظهر الاسلام اتخذهم القياصرة اعوانًا لهم على المسلمين كما اتخذوهم من قبل اعوانًا لهم على الفرس فكان الدم العربي المسيحي في جيش الروم يحارب الدم العربي في جيش المسلمين . اي ان الاخوين كانا يقتتلان كل واحد دفاعًا عن دينه وملكه وبلاده . وغير غريب ان تكون خرابة المشتى الجميلة أثرًا من آثارهم فقد روى المؤرخون انهم كانوا مولعين بالبناء وانشاء الحصون والقصور . منها صرح الغدير (١) في اطراف حوران لاميرهم ثعلبة . والقناطر وادرح والقسطل الذي مرَّ ذكره لجبلة . والحفير ومصنعه للحارث بن جبلة . ودير ضخم ودير النبوة (٢) للايهم بن الحارث . وقصر السويداء للنعمان الذي قال النابغة الذبياني في ابيه عمرو

عليّ لعمرو نعمة بعد نعمة لوالده ليست بذات عقارب

واصلح النعمان بن الحارث صهاريج الرصافة وكان قد خربها بعض ملوك الحيرة اللخميين . وبنى الايهم بن جبلة بن الحارث ابنية في تدمر وكان له عامل يُدعى « القين » بنى خسر وقصرًا عظيمًا في البرية ومصانع الذي يظن ابو الفداء انه قصر برقع

وكان الغساسنة يحبون السكنى في القفار والسهول الجدباء على الاقامة في المدن والقرى وذلك لانطباعهم في الاصل على المعيشة البدوية ولكن امراءهم كانوا يتخذون القصور والحصون مقامًا لهم ويبنونها في وسط القفار . وكان لديهم بناءون ماهرون في صنعة البناء من اليونان والفرس . وكل امير منهم لم يكن يبني شيئًا في حياته فانه يكون عندهم قد خالف سنّة اجداده كما رأيت في ما تقدم

وقد شاهد المسيو برهرت في سياحته التي نحن في صددها في جهات ادوم ايضًا آثار بُصرى الادومية (غير بصرة العربية) وهي التي كانت موجودة في عهد موسى لما اقتسم ارض الميعاد بين بني اسرائيل ودخلت يومئذ في قسم روبين . ولكن بما انها كانت على حدود مملكة روبين وادوم ومواب فقد كانت تتنقل بين هذه الممالك الثلاث تبعًا للمنتصر . وقد صارت في عهد قسطنطين الكبير وفيليب العربي كرسيًا للولايات العربية وبلغت من الحضارة مبلغًا عظيمًا . وفي عصر مملكة تدمر كانت حصنًا للحدود ومركزًا عامًا لقوافل التجارة .

---

(١) لعلها شربة البيداء التي تقدم ذكرها آنفًا

(٢) يقول ابو الفداء « البنوة » ولعلها اصح لنسبتها للافنوم الثاني

اما اليوم فلم يبقَ فيها سوى خرابات مخيمة و بيوت حقيرة تسكنها ثلاثون او اربعون عائلة ولكن السائح وجد بجانب بصرى هذه خرائب قريتين تدعيان « غسام »قال بعضهم: فمن المحتمل ان تكون هذه الكلمة محرفة عن «غسان» وان تكون تلك الآثار من آثار الغساسنة ايضاً. وبذلك تقوى حجة القائل بان خرابة « المشتى » من آثارهم لثبوت وصولهم الى بلاد ادوم

كتاب مفتوح

الى عطوفتلو رشيد بك والي بيروت قبلاً
و والي بروصه الآن

هي قصة صغيرة نرجو من عطوفتكم ان تسمحوا لهذه المجلة ان تقصها عليكم . وهي مضطرة الي ذلك بسبب وظيفتها الاولى التي كانت لها

فانكم تعلمون يا صاحب العطوفة ان هذه المجلة كانت تُدعى « الجامعة العثمانية » وتذكر انها صدرت وعطوفتكم في بيروت . وقد صرفتهما منذ نشأتها للدعوة الى ما فيه التوفيق بين العناصر العثمانية المختلفة . وذلك لسببين (الاول) ان اخلاق صاحبها تكره الشقاق والنزاع . وهو يفضّل ان يكون بين الاحزاب تصيبه الصدمات من الجانبين على الانحياز لاحد الفريقين . ذلك لان الانحياز يقتضي التنازل عن الاستقلال الشخصي وطلب الغلبة لا طلب الحقيقة . فقد قال فولتير واصاب في هذه ان من ينشد الحقيقة المجردة لا يمكن ان يكون مع حزب دون حزب لان كلاً من الاحزاب في جانبه شيء من الحق . والعقل يوجب على العاقل الاعتراف بهذا الحق بدل انكاره تأييداً لحقه . (والسبب الثاني) ان مصلحة الدولة العثمانية نفسها ومصلحة « كل » العناصر فيها قائمة بالتوفيق والاتحاد والمسالمة

وقد استمرت « الجامعة العثمانية » في سنتها الاولى تبحث في الاصلاح العثماني وطرقه بكل حرية وهي تدخل مع البريد العثماني مارة على قلم المراقبة دون ان يؤخر جزء منها او تُنقص صفحة من صفحاتها . . فخيبتم بذلك ظن صديق غيور كان يرسل اليها من بيروت مع احد الاصدقاء يقول لها ان تعدل عن الكلام في الاصلاح وذكر الاصلاح لئلا يصيبها اذى . ذلك لانكم فهمتم غرضها واحسنتم الظن بها